

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

الموسم الجامعي: 2022/2023
المستوى: ثانية فلسفة
الأستاذ: عبد الله زين

كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية
قسم العلوم الاجتماعية
المقياس: فلسفة التاريخ

المحاضرة الثالثة: الله والتاريخ (تحليل الرؤية التي تجعل من التاريخ مجرد أحداث صنعها الله)

تمهيد:

إذا كانت المسيحية قد ظهرت منذ القرن الأول الميلادي واستمرت إلى اليوم كديانة تسود أوروبا وغيرها من القارات الأخرى، فهل حافظت على شكلها القديم؟

لم تحافظ على شكلها القديم، وإنما تحولت من ديانة لها أتباعها ومعتقوها في نهاية الحضارة الرومانية، إلى رؤية للعالم وأيديولوجيا حكمت الغرب طيلة قرون؛ أي تحولت المسيحية من ميتافيزيقا دينية إلى ابستيمي معرفي ساد العصر الوسيط في أوروبا وخضعت كل المعارف الإنسانية لنصوصها المقدسة وتأويلات رجال الدين والكنيسة، ومن هذا المنطلق خضعت الكتابة التاريخية إلى تفسير لاهوتي؛ بمعنى تفسير الأحداث التاريخية بإرجاعها إلى الله، فالله هو صانع التاريخ، والتاريخ مجرد أحداث صنعها الله .

ضمن هذا السياق يأتي الحديث عن المسيحية وعن الفلاسفة المسيحيين وعلى رأسهم القديس " أوغسطين "، الذي يعتبر أحد أكبر رجال المسيحية، وأهم منظري فلسفة التاريخ في العصر الوسيط . فما المقصود بالمسيحية؟ وما أهم مبادئها؟

-تعريف المسيحية:

هي إحدى الديانات السماوية، التي يعتبر يسوع المسيح الشخصية الأساسية فيها، والمؤسس لها، أما كتابها المقدس، فهو الإنجيل (العهد الجديد)؛ وهو مجموعة التعاليم التي أتى بها يسوع المسيح ونشرها بين أتباعه، ثم قام تلاميذ المسيح الإثنا عشر بكتابة هذه التعاليم ونشرها في الأصقاع .

ظهرت المسيحية ببداية قيام المسيح بنشر رسالته في عام 25 ميلادي تقريبا، حيث ولد المسيح في السنة الخامسة قبل الميلاد، وبدأ خدمته الرسولية وهو في سن الثلاثين، ثم رفع إلى السماء في سن الثالثة والثلاثين .

انبثقت المسيحية من الديانة اليهودية، وأخذت الكثير من المعالم اليهودية، كوجود إله خالق واحد، والإيمان بالمسيح ابن الله الحي، والصلاة والقراءة من كتاب مقدس، ولعل محور العقيدة المسيحية، يتمثل بالمسيح وعمله الكامل على الصليب لفداء المؤمنين . يتفرع من المسيحية عدة مذاهب أهمها: الكاثوليكية، والأرثوذكسية (شرقية، غربية)، إضافة إلى البروتستانتية .

أما يسوع المسيح، فهو عيسى عليه السلام، الذي ولد في بيت لحم، وترعرع في مدينة الناصرة (فلسطين) أو " أورشليم "، وهو نبي من أنبياء الله، وقد ورد ذكره في القرآن الكريم، في عديد الآيات، كقوله تعالى: " وإذ قال عيسى بن مريم، يا بني إسرائيل، إني رسول الله إليكم... " . الأعراف/ 157.

أما لفظ المسيح، فقد ورد في عدة مواضع من القرآن الكريم، كقوله تعالى: " إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه، اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيها... " آل عمران/ 45 .

أما معنى اسمي " المسيح " و " يسوع "؛ فحسب المسيحية، السيد المسيح ليس مجرد نبي، وإنما هو الإله المتجسد، الذي حبل به من روح الله، وهو المرسل من الله لأجل خلاص العالم وفدائه من الخطيئة، وهو الذي يطلق عليه الكتاب المقدس: " ابن الله " .

أما كلمة يسوع؛ فمعناها " الله هو الخلاص "، وكلمة المسيح، تعني " الممسوح "، أي الممسوح من الله، الذي جاء لهداية الشعب السائر في الظلمة .

أما بخصوص مبادئ المسيحية، فيمكن إيجازها في أن الحقيقة تقاس بمعيار الديانة المسيحية، فما أقرته المسيحية وما توافق مع تعاليمها فهو حق، وأما غير ذلك فهو باطل وغير حقيقي، كما قالت المسيحية بعقيدة التثليث (الله، الابن، روح القدس) .

أما بخصوص العقيدة المسيحية، فنقوم على مفاهيم أساسية وخطوط عريضة هي:
*التجسد الإلهي في المسيح (عيسى عليه السلام) .

*صلب المسيح الذي أدى إلى موته، هو فدية عن المؤمنين، ولرفع خطيئة العالم ؛ إذ يدعي المسيحيون أن الله قد ضحى بولده المسيح، كي ينقذ ويفدي البشرية من الخطيئة التي ورثوها عن آدم عليه السلام، وهم بذلك يثبتون عقيدة الصلب والفداء .

*قيامه المسيح المجيدة تعطي الإنسان الخاطيء فرصة للنجاة من العقاب، ونيل الحياة الأبدية .

*الثالوث: إله واحد يتمثل في ثلاثة أقانيم أو كينونات في ذات الله، هي: الأب، الابن، الروح القدس .

*المسيح هو الله الذي ظهر في الجسد، تجسد من مريم العذراء، بشرا، ويؤمنون أن المسيح ولد من مريم العذراء، بقوة روح الله، عندما حل الروح القدس عليها، فأخذ منها إنسانيته .

*يؤمنون أن عيسى هو المسيح، الذي انتظره اليهود، وهو وريث عرش داوود، وأن له معجزات هي: (إقامة الأموات، تطهير البرص، تسكين البحر، إطعام الألف ...) .

أما الكتاب المقدس، فينقسم لدى المسيحيين إلى قسمين هما: العهد القديم (التوراة)، والذي يختلف عن التوراة لدى اليهود . والعهد الجديد (الإنجيل)، ويتكون من أربعة أناجيل هي: (متى، مرقس، لوقا، يوحنا) .

اتبع المسيح في حياته على الأرض، عدد قليل من اليهود، هم تلاميذه، وبعد هذه المرحلة، شهدت المسيحية تحول أكبر أحد أعدائها، وهو اليهودي المعروف بـ " شاوول الطرطوسي " نسبة إلى طرطوس، فأصبح اسمه " بولس " (الرسول)، وتحول إلى أهم ناشري المسيحية بين الأمم (الرومان) .

تعرضت المسيحية للاضطهاد، من طرف بعض قياصرة الرومان، ولكن بعد أن تحول قسطنطين عن الوثنية إلى المسيحية، أصبحت هاته الأخيرة دين الدولة الرومانية، وديانة الغرب الأوروبي عموما .

-لمحة عن حياة أوغسطين:

هو أوريلوس أوغسطينوس، ولد سنة 354 م في تاغشطا، يعد من أشهر آباء الكنيسة اللاتينية، والده باتريسيوس، وقد كان وثنيا، أما أمه مونكا، وقد كانت مسيحية، ترك الدراسة مبكرا، وعاش طفولة مضطربة، تقلد بعض المراتب في الكنيسة كالمعمودية و الكهنوتية والأسقفية، استمر كأسقف إلى أن توفي سنة 430 م .

ترك أوغسطين عدة مؤلفات منها: الاعترافات، مدينة الله، العقيدة المسيحية، في الثالوث، في النظام، في خلود النفس وغيرها من المؤلفات .

-فلسفة أوغسطين:

تعبر فلسفة أوغسطين عن عقيدته المسيحية؛ بحيث أنها جاءت تتم عن تسلسل رائع يصل إلى اكتشاف الله، وهي تعبر عن جهد إيماني مسيحي يفتش كي يطلق العنان لتعقل الإيمان لمحتواه بواسطة تقنية فلسفية، سماتها الأساسية مستوحاة من الأفلاطونية المحدثة، وبالتحديد من أفلوطين .

تناول أوغسطين في فلسفته، جملة من المشكلات: كمشكلة الله، المعرفة، النفس، السياسة، التاريخ .

-فلسفته في التاريخ:

نظر أوغسطين أولا: إلى أن التاريخ، بوصفه تعاملًا مع تاريخ خاص، فهو يتخذ من العقيدة المسيحية مصدرا لتفسير التاريخ، ويتخذ من التاريخ دليلا على صدق العقيدة المسيحية، وهو يتعامل انطلاقا من تلك المعايير، في أنه يفهم التاريخ على أنه: ظاهر وباطن، والتاريخ الظاهر، هو رمز للتاريخ الباطن، والتاريخ الباطن أو المقدس، يفسر التاريخ الظاهري، لهذا اعتمد هذا التصور في إثبات الحقيقة التاريخية .

جاء أوغسطين بفلسفة للتاريخ، تركز على ركيزة الديانة المسيحية؛ بحيث فسر التاريخ تفسيراً دينياً لاهوتياً، وجاء بنموذج في فلسفة التاريخ، يعرف بنظرية العناية الإلهية .

لقد جاءت أفكار أوغسطين في أهم كتابين: مدينة الله، الاعترافات، حيث دافع فيهما عن المسيحية، وأكد فيهما أن العناية الإلهية هي التي تسير أحداث التاريخ وغاياتها . وتتضح رؤية أوغسطين في ثلاث نقاط هي: علم التاريخ في خدمة اللاهوت المسيحي- التقسيم الثنائي للتاريخ (مدينة الأرض ومدينة الله)- العناية الإلهية تحكم سير التاريخ الإنساني، ويمكن توضيح النقاط السالفة الذكر كما يلي:

1- علم التاريخ في خدمة اللاهوت:

شغل التاريخ مكانة مرموقة، في فكر أوغسطين، فيوصف هذا الأخير رجل دين هدفه الدفاع عن العقيدة المسيحية وتقديم الأمثلة التاريخية من أجل اثباتها؛ بمعنى أنه وظف التاريخ من أجل إثبات الحدث الديني العقائدي، ومن الأمثلة التي اعتمدها بوصفها أدلة تاريخية في إثبات العقيدة المسيحية، عبر إدراج التاريخ المقدس في التاريخ الإنساني، وإلا بقي هذا التاريخ المقدس أشبه بالقصة الأسطورية منها:

أولادة عيسى: فقد ولد في عهد بونس بيلات (ponce pilate) .

ب-قيام عسى بعد الصلب: وقام في اليوم الثالث لموته، في زمن الإمبراطور أغسطس، وكان ذلك على أرض فلسطين

ج-النبوءة بظهوره: لقد تنبأ الكثير من الأنبياء، وتوقع بعض الملوك مجيء المسيح .

تجدد الإشارة إلى أن أوغسطين قد طبق التصور اللاهوتي على تفسير الحقيقة التاريخية؛ إذ أن أحداث الماضي ورموز الحاضر تحتاج لتأويل من قبل المؤرخ لتكشف له عن الحقيقة الكلية التي تستر وراءها، وما هذه الحقيقة الكلية إلا حقيقة تاريخ البشرية منذ الخلق حتى اليوم، بل وحتى الأبد في الحياة كما أرادها الله .

اعتبر أوغسطين-انطلاقاً من عقيدته المسيحية-أن التاريخ كعلم لن تكون له وظيفة سوى خدمة العقيدة المسيحية، وهذا ما دفع أوغسطين إلى الاهتمام بالتاريخ أصلاً، خاصة بعد الانحطاط الذي أصاب الرومان، فاعتقد الناس في ذلك

الوقت، أن الديانة المسيحية هي المسؤولة عن هذا الانحطاط، فراح في كتابه " مدينة الله " ينفي هذا الادعاء، قائلاً:

" لما اجتاحت القوط الرومان سنة 410 م، لم يكن غير طبيعي من الوثنيين، أن يعزو هذه الكارثة إلى هجر الناس للآلهة القديمة، قائلين أن روما قوية ما بقيت عبادة " جوبتير " قائمة، أما وقد أدير الأباطرة عن عبادته، فلم يعد يحمي أتباعه الرومان، وكانت هذه الحجة الوثنية تتطلب ردًا، فكان كتاب " مدينة الله " الذي كتب جزءاً جزءاً، ما بين: 412-427 م

هو الرد الذي تقدم به " أوغسطين " .

والتفسير الذي قدمه أوغسطين لسقوط روما، يتمثل في الانحلال والفساد الأخلاقي الذي عم المجتمع الروماني، بسبب الديانات الوثنية التي سادت روما، تلك الديانات التي لا علاقة لها بتطوير الجوانب الأخلاقية في الإنسان .

2-التقسيم الثنائي للتاريخ/ مدينة الأرض ومدينة الله:

لقد جاء أوغسطين بتقسيم للتاريخ، يختلف عن التقسيم اليوناني (عصر ذهبي، عصر برونزي)، فقد قسم التاريخ من منطلق اللاهوت المسيحي إلى قسمين: قسم ابتدأ من آدم، وقسم ابتدأ مع ظهور المسيح عليه السلام، كما قسم تاريخ البشرية إلى مدينتين: مدينة الأرض، والتي تشمل الإمبراطورية الآشورية والإمبراطورية الرومانية . ومدينة الله، التي تشمل عصر سيطرة الديانة المسيحية في أوروبا .

أراد أوغسطين من خلال هذا التقسيم، أن يثبت أن التاريخ الإنساني سائر إلى مدينة الله، بعد ظهور المسيح، لذلك

نلاحظ أن هذا النوع من الكتابة التاريخية، التي سادت في القرون الوسطى، والتي هيمن فيها العقل الديني على

التاريخ، أدت إلى القضاء على الجوانب العقلية في كتابة التاريخ، كعلم ينتمي إلى المعرفة الإنسانية .

3-العناية الإلهية تحكم سير التاريخ:

إن أبرز إسهام لأوغسطين في فلسفة التاريخ، يتمثل في فكرته عن العناية الإلهية، فقد بحث عن الذي يقع وراء التاريخ وحوادثه .

التاريخ من وجهة نظر أوغسطين، لا تحكمه الصدفة العمياء، وإنما هو خاضع لمشيئة الله وعنايته وإرادته المطلقة،

منذ خلق آدم إلى لحظة بعث المسيح، وتشير نظرية العناية الإلهية إلى أن التاريخ، مسرحية ألقها الله ويمثل أدوارها

الإنسان؛ أي أن وقائع التاريخ، تخضع لمشيئة الله، بل العناية الإلهية هي التي تشكلها على نحو ما هي عليه، يقول

أحمد محمود صبحي: " فالإيمان بالعناية الإلهية في التاريخ، يقتضي الإيمان بالله، ومن ثم فإنها ليست مجرد نظرية،

ولكنها ترقى إلى مستوى الاعتقاد، إذ لا بد من تدخل محكم من الله الحكيم، ليخطط للإنسان العاجز عن فعل الخير،

لنفسه، ولولا هذا التدخل الإلهي، لأصبح التاريخ كومة من عصور متراكمة، من عبث ومأساة رهيبية، دون بداية

معنوية أو نهاية مقبولة " .

وفي الأخير، رأى أوغسطين، أن الكنيسة هي التي ستقيم مدينة الله في الأرض، تلك المدينة التي سينتشر فيها العدل

والاحترام وحقوق الإنسان .